

وهكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله ، وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرا .

(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق .

انظر: تفسير ابن كثير: (8/ 197).

ويقول الشيخ السعدي: " إنا بلونا هؤلاء المكذبين، بالخير، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون !!

فاغترارهم بذلك : نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها ، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يَجِدُّونها مُصْبِحِينَ، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادهم إليها.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ) أي: عذاب نزل عليها ليلا ، (وَهُمْ نَائِمُونَ) ، فأبادهَا وأتلفها. (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) أي: كالليل المظلم، ذهب الأشجار والثمار .

هذا ؛ وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم، لما أصبحوا ، يقول بعضهم لبعض: (أَنْ اِغْدُوا عَلَيَّ حَزْرَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَأَنْطَلِقُوا) : قاصدين له ، (وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ) فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: (لا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ) ، أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء.

(وَعَدَّوْا) في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة (عَلَى حَزْرٍ قَادِرِينَ) أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها.

(فَلَمَّا رَأَوْهَا) على الوصف الذي ذكر الله ، كالصريم : (قَالُوا) ، من الحيرة والانعاج : (إِنَّا لَصَّالُونَ) ؛ أي: تائهون عنها، لعلها غيرها!!

فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم ، قالوا: (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، ف (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة : (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك : ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتهم فقلتم: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) ، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى .

فقالوا (سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم، ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ) : فيما أجروه وفعلوه . (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) أي: متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده.

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ) : فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا .

فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله.

قال تعالى مبينا ما وقع: (كَذَلِكَ الْعَذَابُ) أي: الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب : أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به ، وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) من عذاب الدنيا (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ، ويُجل العقاب ” ، تفسير السعدي: (880) .

ثانيًا:

أما علاقة هذه القصة بما قبلها من السياق ؛ فإن الله ذكر حال الكفار بالني صلى الله عليه، وذكر أن ما هم فيه : ابتلاء، وأن ما هم فيه من خير ونعمة، لا لكرامتهم ، وإنما استدراج لهم من حيث لا يشعرون ؛ فاغترارهم بذلك : نظير اغترار أصحاب الجنة.

يقول الرازي: ” اعلم أنه تعالى لما قال: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهاما على سبيل الإنكار ؛ بيّن في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله .

فإن لم يفعل ذلك : فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات ، فقال: (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) : أي : كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم “ ، التفسير: (607 /30).

ويقول الطاهر ابن عاشور: ” والجملة مستأنفة استئنفا ابتدائيا ، دعت إليه مناسبة قوله: (أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) [القلم: 14- 15] ؛ فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق ، المفضيين إلى

الاستخفاف بدعوة الحق ، وإهمال النظر في كنهها ودلائلها : قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة ، وإهمال الشكر، فجر ذلك عليهم شر العواقب !!

فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة ، لعلمهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم ، كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلا بقارون في سورة القصص ، التحرير والتنوير: (79 /29).

والخلاصة :

أن الله ذكر حال الكفار بالنبي صلى الله عليه، وذكر أن ما هم فيه بلاء، وأن ما هم فيه من خير ونعمة، لا لكرامتهم وإنما استدراج لهم من حيث لا يشعرون ؛ فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة الذين حرمهم الله من ثمارها وخيرها ، جزاء طغيانهم وشحهم .

والله أعلم .